

عيب واحد !!

بلغ الضيق بحمد مبلغا عظيما ، لفشله فى إصلاح عبده وتأديبه ، وإفهامه أنه بما يفعل يفضب ربه وخالقه ، وأن إفساد ذات البين يحبط العمل ، ويضر الإيمان . ولكن دون جدوى ..

لقد اتبع معه مختلف الوسائل وشتى الطرق . بالتخويف تارة ، والضرب أخرى ، والإرهاب مرة ثالثة ، ثم بالكلام اللاذع ، واللفظ القاسى والأسلوب المرير ، ولكن الحال كما هو لم يختلف ، من يوم أن اشتراه .. كل حظه من الحياة ألا يرى اثنين متحابين ، وكأن حسن الصلة بين الناس تلهب بدنه ، وتضنى فؤاده ، وتمزق كبده ، وتلذع قلبه لذعا ، فهو لا يطيق أن يصبر على هذا ، ولا يستريح إلا حيث يشتجر الناس ، وتضطرب الحياة .. أما الهدوء والاستقرار .. أما المحبة والمودة ، والصدقة والألفة فذلك ألم له وأى ألم ، وعذاب وأى عذاب ، والله فى خلقه شئون .. !!

واستقر رأى حماد على بيعه والتخلص من شره ..

ولكن هل يكتفى هذا العيب اللعين ؟ إنه لو كتمه لأمكنه أن يبيعه بمبلغ كبير ، ويربح فيه ربحا عظيما ، بيد أن هذا حرام ، لأنه غش لا يجوز لمسلم أن يقع فيه ، فمن غش مسلما فليس بمسلم إسلاما تاما ، إذن لا بد أن يعلن هذا العيب ، ويقول لمن يريد شراؤه : إنه تمام ..

غير أن إعلان هذا العيب سيزرى بهذا العبد ، وربما يصرف عنه كل

من يريد الشراء ، فبحال أن يشتري إنسان شخصا ، وهو يعرف أنه تمام ،
ولو كان يعرف عنه هذا العيب قبل أن يشتريه ما اشتراه بحال من الأحوال ،
وإذا اشتراه أحد فلا بد أن يبخس ثمنه ، فلا يحصل على قيمته الأصلية ..
فماذا يفعل إذن ؟ ! عليه أن يعلن العيب ، وأن يصارح المشتري كأننا ما كان
الأمر ، بالغة ما بلغت قيمة هذا العبد اللئيم ..

* * *

— أتبيع عبدك يا حماد ؟

— نعم يا زياد ..

— كم تطلب فيه ؟

— أنا لا أطلب مبالغا خاصا ..

— ولم ؟

— لأن فيه عيبا ، لا أدري على وجه التحقيق كم ينقص من قيمته ،
ويخفض من شأنه ..

— عيب واحد ؟

— أجل ، إنه عيب واحد ، لا ثانى له ..

— هذا سهل ميسور ، ليت الأمر يكون كما تقول يا حماد ..

— إنه كما أقول بالضبط ، فهو نشيط مجد إلى أبعد حد ، صبور قوى

لا تضعف له همّة ، ولا تنهن له عزيمة ..

— وما هو عيبه ؟

— إنه تمام . . يفسد ما بين الأصدقاء والخلائق ، ولا يرضيه السكون

والهدوء ، بينما يرضيه الشجار والعراك . .

— هذا يسير ، وما قيمة هذا العيب بجانب عيوب العبيد . . رضيت

بشرائه ، على أن أعطيك ثمنه الذى دفعته أنت فيه دون ربح ، فهل

قبلت . . ؟ !

— نعم ، وما كنت أطمع فى هذا الثمن . .

— لا يرضينى أن تخسر فيه يا حماد . .

— شكرا يا أخى . .

* * *

وأخذ زياد عبده الجديد ، وهو فرح أشد الفرح ، لأنه ابتاعه بثمان

زهيد . ما كان يظن أن يشتريه به . . إنه دفع نصف القيمة التى تناسب

هذا العبد القوى ، الفارع العود . . أما هذا العيب الذى تحدث عنه حماد . .

فلا قيمة له فى نظره . . تمام . . وما قيمة النعمة بجانب هذه المزايا العظيمة ،

المزايا الجسمية ، التى يتمتع بها هذا العبد . . إنه لا يريد منه إلا أن يكون

طيعا صابرا قويا ، حتى يؤدى ما يكلف به ، ويطلب منه ، ثم يكون بعد

هذا ما يكون . . وهل يجد النمام فرصة إلا حيث يتصل بالناس من قرب ؟

إنه سيحول بينه وبين الناس ، فلن يخاطبهم ، ولن يتصل بهم ، إنه

سيرهقه بالعمل المضنى ، حتى لا يجد فرصة لإرواء غلته ، أو إشباع نهمة ،

وإذا اعتاد هذا ابتعد عن هذا الداء اللعين ، ولا يضره بعد هذا أنه كان متصفاً به . .

وشارك زياد في فرحته وسروره زوجته ، فسيكفيها هذا العبد مؤونة العمل الشاق ، والجهد المتواصل الذي تبذله في البيت من حين إلى حين ، فمطالب زياد كثيرة ، وضيوفه كالسيل لا يهدأ ولا ينقطع ، وقبيلته كثيرة العدد ، يسود بينها التراحم والود ، فهي متواصلة على الدوام . . وما أهناً لقلب المرأة من خادم أمين ، قوى صبور ، طيع لا يعصى لها أمراً ولا يناقشها الحساب من حين إلى حين . . إنها لتجد فيه السعادة التي ليس بعدها سعادة ، إذ يكون عوناً لها ودرعاً ، يسهل به كل صعب ، ويذلل به كل عسير .

وطافت هذه الفرحة بالقبيلتين . . . قبيلة زياد ، الزوج الوفي لزوجته ، الحريص كل الحرص على ما يرضيها ، ويسعدها على الدوام ، لا يني عن ذلك جهده ؛ ولا تضعف همته ، مهما بذل في هذه السبيل طائل الأموال ، وتحمل جسيم النفقات . . . وقبيلة ميمونة ، الزوجة الجميلة التي لها من شرفها وعفتها خير تاج ، طيعة مؤدبة ، تحفظ لزوجها الود وتبادل له حباً بحب ، وإخلاصاً بإخلاص ، لم يطغها ثراء قبيلتها ، ولا جماها الذي صار مضرب المثل ، في البيئة التي تحيا فيها ، في بوادي الشام . .

وشارك الأضياف هؤلاء في فرحهم ، وسروا بهذا العبد الجديد الذي

ومضى شهر ، وتبعه آخر ، وتبعهما ثالث ، وزياد يلاحظ العبد بدقة ،
فلا يرى أثراً لذلك العيب الذى تحدث عنه حماد ، فداخله الشك حيناً ،
ثم زال هذا الشك ، واعتقد أنه لا بد وأن يكون برى منه إلى غير رجعة
إن شاء الله . .

* * *

هبّت الريح رخية هادئة ، تنعش النفوس ، وتبعث الآمال ، وتحى
الرجاء ، ووهنت قوى الشمس ، وفترت عزيمتها ، فألقت على الصحراء
تلك الأشعة الحمراء المتخاذلة ، ولم تمض دقائق حتى غاب قرص الشمس ،
وبقى الضوء منتشراً فى الأفق ، يلف هذه التلال والهضاب المحيطة بخيام
زياد وقبيلته بثوب رقيق شفاف . . وارتفع فى الجو أطيط الإبل وثغاء
الشاء ، ونباح الكلاب ، وقوقأة الدجاج ، الذى أخذ يتجه إلى عشته
حيث يخفت صوته بعد حين ، حيناً ينشر الظلام رداءه على السكون .

وجلست ميمونة أمام خيمتها تنظر إلى الأفق البعيد ، وليس معها
غير عبدها الذى قبع بجوارها ، وتناثرت خيام قبيلة زياد من بعيد فى كرم
وترف ، فكل خيمة يتبعها عدد من الخيام الصغيرة فيها ما يحتاجون إليه
من متاع وحاجيات .

واقترب العبد من سيدته وتكلم فى صوت مرتجف ، ولكنه يبدو
فيه رنة الإخلاص والنصيحة والوفاء :

— سيدتى !

— نعم

— إن عندى سرّاً أريد أن أقوله ..

— وأى سر تعنى ؟ تكلم ..

— ولكن ..

— ولكن ماذا ؟ قل ولا تخف ..

— أتعديننى أن تخفيه عن سيدى ؟

— إذا كان يستحق الإخفاء ..

— إنه يستحقه لا جرم .. إن سيدى لو علم ما سأقوله لك لذبحنى ..

وذهلت ميمونة عند ذلك ، وارتجفت رجفة شديدة . وقالت فى

عزم وقوة :

— إذن فإن يعلم بهذا السر إنسان ..

— إذن فاعلمى أن سيدى ...

وصمت العبد مرتبكاً مضطرباً فصاحت ميمونة :

— سيدك ما ذا ؟ تكلم ..

— إن سيدى له خليلة يخصها بالفضل والخير ..

— خليلة ... خليلة ... ماذا تقول .. ؟ !

— إنى لك الوفى الأمين .. إنى أصدقك الخبر .

— زياد له خليلة ؟! يعرف امرأة غير زوجته !.

وما أسرع تصديق المرأة لهذا النوع من الأخبار ، إنها لا تقوى بحال

من الأحوال على الصبر والجلد ، بل سرعان ما يتزعزع إيمانها بزوجها

وتضعف ثقتها به ، مهما كان نصيب هذا الخبر من الكذب والافتراء ؛
ومهما بلغ حبها أزواجها أرقى درجة من القوة ، والإخلاص والوفاء .. إنها
حينما تسمع خبراً من هذا القبيل تنسى كل شيء ، لا تتروى ، ولا تهتداً
ولا تتأكد من الخبر ، أو تثبت كما يجب ، بل تسرع بالاتهام لأول وهلة ،
ويطير صوابها ، وتصبح كالخبولة التي لا تعى شيئاً ..

وهذا ما كان ، إذ اضطربت ميمونة لهذا الخبر ، الذي هزها هزاً
عنيفاً ، وزلزل كيانه ، وأحست بالجويكاد يخنق أنفاسها ، ويقضى عليها
القضاء الأخير .. خيل إليها أنها صارت عمياء ، لا تبصر شيئاً مما حولها ،
وأن زوجها يخونها دائماً ، وأنه الآن في أحضان تلك المرأة اللعوب ، التي
تفتنه وتغريه ، وتسلبه لبه وماله ، وتصرفه عنها !.

ويحك يا ميمونة ، كيف عشت بجوار زوجك هذه المدة الطويلة ،
ثلاث سنوات كاملات ، وأنت لا تفهمين الحقيقة الأليمة ؟ إن كلامه كله
رياء ونفاق ، إنه حينما يلقي إليك بكلمة طيبة من كلمات الحب والهيام ،
لا يقصد بها معناها ، وإنما يقصد بها التفرير والكذب ، والخديعة
والمكر .. ويحك يا ميمونة ، لقد أخلصت له الود ، وأضمرت له الحب ،
وقصرت قلبك عليه هودون سواه .. كم غازلك كثير من أقاربه وأصهاره ،
وهم أجمل منه ، وأكثر ثراء ، وكان في مكننتك أن تلبى إشاراتهم ، وأن
تتخذى لك خليلاً وصديقاً من أحدهم ، ولكن الشرف والوفاء والحب ،
والإخلاص القوى ، كل هذا منعك من الاستجابة لنداء هؤلاء ، وقد
استعملت الحكمة حين اكتفيت بالإعراض عنهم ، ولم تفضحى واحداً منهم ،

خشية أن تقع القطيعة بين أفراد القبيلة .. ويحك يا ميمونة ، اندفعت مع هذه الألفاظ التي أصبحت لغير مدلول .. كلمات الشرف والحب والوفاء والود ، وسجنت نفسك في هذه الخيمة ، بينما سار هو في طريق رحب وسيع ، يجد لذائذه وشهواته سهلة ميسورة ، ما دام قد وضع على عينيك غشاء ، واطمأن إلى جانبك ، وعلم أنك محافضة على شرفه ، صائنة عرضه .

واندفعت مع الشيطان يسير بها في طرق ملتوية من التفكير الآثم، والرأى الدنيء ، وبدنها يقشعر حيناً ، أو يهتز طرباً حيناً آخر .. ورأت الدم الأحمر القاني يسيل ، فبسمت له مادام سيروى غلتها ، ويشبع نهمتها ، ويرضى رغبتها في الثأر لكرامتها ، ونيل ما تريد من الانتقام .. !!

وعادت بذكرتها إلى السنوات الثلاث التي قضتها مع زوجها ، فإذا بحياتها في هذه السنوات يتغير لونها ، وتأخذ صبغة أخرى ، فكل جميل أصبح دميماً ، وكل حسن صار قبيحاً ، وإذا بهذه الحياة الرغدة الناعمة ، التي لم تشعر فيها بهم أبداً ، حتى هذه اللحظات التي جلس إليها العبد وألقى إليها هذا الخبر - إذا بهذه الحياة تصبح جحماً لا يطاق ..

يا لله ما أسرع الشيطان إلى استجابة الدعاء .. وما أقواه في افتعال

وقال العبد فى اؤم ، وهو يقترب من سيدته ميمونة ؛ ويكاد يلمس
أذنها بقمه :

— لا تحزنى ياسيديتى ..

— وكيف لا أحزن ، وهذا خبر صاعق ..

— عندى حل لهذا المشكل .

— حل ؟ وما هو ؟ !

— خذى موسى ، واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات وأعطيها
لى ، ودعى الأمر أتصرف فيه .

— وماذا تفعل بها ؟

— سأسحر له عليها ..

— هل تريد قتله بالسحر ؟ !

— كلا ، بل ليهم بك ويحبك

— وهل فى مكنة السحر أن يعمل هذا ؟

— أجل وسترين .

* * *

ووقعت المرأة فى حيرة قاتلة . وانتابها لون من ألوان الخبل لشدة
اضطرابها ، وخيل إليها أنها لن تتمكن من حلق هذه الشعرات ، إذ ربما
نحونها يدها فتجرح زوجها ، وتسوء العاقبة .. إذن كيف تحصل على هذه
الشعرات من قفاه .

وعبثاً حاولت أن تجد طريقة غير الطريقة التي أخبرها بها العبد ،
وهي أن تنتهز فرصة غومه ليلاً ، وبالموسى بالذات .

وسرعان ما قامت إلى الموسى تسنه في عناية بالغة ، ووضعت في مكان
أمين ، تصل إليه بسهولة دون تعب ولا عناء ، وتكافئ الحزم ؛ وأنها
لا تأبه بكل ما سمعت ، ما دامت النتيجة النهائية هي محبة زوجها لها ، عن
طريق السحر .

إن هذا العبد قدم إليها نعمة عظمت ، ويداً لن تنساها له أبداً الدهر ،
وكيف لا ، وقد أنقذها من هوة سحيقة ظلت فيها ثلاث سنوات هائمة
لا تدري من أمرها شيئاً ، ولا تعرف كيف تسير .. أما الآن فستصل إلى
بر الأمان والسلامة ، من أيسر طريق ، وستغدق على هذا العبد نعمها ،
وتتخذ دأماً الناصح الأمين ، والمرشد الحصيف ، الذي يدبر لها الرأي ؛
ويضع لها الخطط في أشد المشكلات تعقيداً ؛ وأكثرها خفاء والتواء .

وأسرعت إلى خيمتها عندما رأت غباراً متصاعداً من بعيد ، وفارساً
مقبلاً نحو مضارب الخيام .. إنه زياد بلا شك ، فأخذت تتشاغل بتنظيم
الخيمة ، وإعداد بعض شئونها .

* * *

ما كاد زياد يستريح من وعشاء الطريق ، حتى أقبل إليه عبده في
خوف مصطنع ، وأسرّ إليه حديثاً خافتاً ، خشية أن تسمعه سيدته ، وقد
أبدى لسيدة الإخلاص والوفاء ، والحب والإيثار .

« إن سيدتى اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك ... !! »

يا لله كيف ذلك ، ماذا يقول هذا العبد اللعين ؟ وكاد يصفعه صفعة تدنيه من قبره ، وتلقى به إلى طبقات الجحيم ؛ إلا أنه تمالك نفسه ، وسيطر على عواطفه ، وجلس ذاهلاً مفكراً .. ألا يجوز أن يكون هذا الكلام على درجة من الصدق بالغة ما بلغت ؟! وإذا كان هذا صحيحاً ، أفلا يجوز أن يحتاط للأمر ، ويتخذ له أهبة ، حتى إذا فوجئ بهذا الغدر أمكنه أن يقابله بمثله ، أو يدفع عن نفسه الشر على الأقل ؟ ... وكيف عرف هذا العبد الأثيم ذلك ؟ لا بد أنه رأى ذلك الخليل مرة ومرة ومرات .. هذا طبيعي ، لأنه ملازم للدار ؛ ومن الجائز أنه تستر على سيدته عدة مرات ، ثم استمع أخيراً إلى نداء الضمير .. ان هذا الخبر لا بد وأن يكون صحيحاً ، وإلا فكيف يجسر هذا العبد على إلقاءه ، وإخباره به على هذه الصورة ، وميمونة قريبة منهما ؟ إنه لو كان كاذباً ما جراً على أن يسر إليه الخبر هكذا .. إنه لا بد وأن يكون واثقاً مما يقول ، وأن لديه البرهان القاطع ، على هذا الخبر الأثيم .. يا لله ! كيف يعاشرها هذه المدة الطويلة ، وهو لا يدري من أمرها شيئاً .. إذن لقد كان واهماً في حبه العميق لها طوال هذه السنوات الثلاث .. شرفه ياوث ؟ عرضه ينتهك ؟ كيف ذلك ؟ . أهكذا يظل طوال هذه المدة ، ألعوبة هذه المرأة اللعوب ؟ يا لله ! كيف أجادت لعب هذا الدور إلى هذا الحد العجيب ؟ .. إنه لم يبد عليها شيء من الشك في سلوكها ، أو الريبة في حياتها ، فهل تجيد المرأة إتقان الأدوار إلى هذا الحد ؟ !

وخاطب عبده فى صوت خافت :

— هل تأكدت مما تقول ؟

— تأكدى من وجودك الآن .

— ألدبك برهان ؟

— يمكنك أن ترى بنفسك .

— متى ؟ وكيف ؟

— الليلة ...

— الليلة ؟ !

— نعم ستحضر إليك عندما يلف الكون الظلام الحالك ؛ وفى يدها

موسى حاد .

— وفى يدها موسى حاد ؟ !

— أجل وستقتلك به .

— تقتلنى أنا ؟ أنا زوجها الوفى الأمين ؟ لقد فهمتُ الآن السبب ..

إنها تريد أن تتخلص منى ، ليخلوها الجو مع عشيقها وخليها .. ولكنى

لن أدعها تنعم بالحياة بعد الآن .. سأقتلها .. سأقتلها ..

— خفض صوتك فإنها قريبة منا ، وأخشى أن تسمع ما يدور بيننا

من حديث فتفشل الحيلة ..

— وأية حيلة تعنى ؟

— أعنى أنك تتناوم لها ، حتى إذا جاءت على ما ذكرت لك ،

أمكنتك أن تدفع الشر عن نفسك .

وساد الوجوم بين الزوجين ، وتناولوا طعام العشاء ، وكان حديثهما صطنعاً متكلفاً ، فكل منهما يضمّر لصاحبه أسوأ ما عرفتة النفس العربية الكلوثة من شر ، النفس العربية التي تريد أن تثأر لشرفها وكرامتها .

وأوى كل إلى فراشه ، بيد أن الوقت امتد واستطال ، وخيل إليها ن الدقيقة ساعة كاملة .. وظلا على هذه الحال حتى انتصف الليل ، نامت الزوجة ، وألقت اللحاف بعيداً عنها ، وسارت على قدميها في اين احتراس وحذر شديد ، حتى وصلت إلى مكان الموسيقى ، وأخذته ، ثم ادت ثانية إلى فراشها تستجمع قواها الواهنة الضعيفة ، فلقد شعرت بأن لنها تهدم وانهد ، وأن المهمة التي قبلت أن تقوم بها عسيرة شاقة ، وأنها ن يمكنها أن تدخل على زوجها في خيمته الآن .. إنه يخيل إليها أن يكون كله عيون محمقة ترميها شذراً وازدراء ، وأن كل ما حولها آذان صيخة تتسمع خطاياها ، وتنصت إلى وقع أقدامها ، وأنها لن تنجو من شر في هذه الليلة المشؤومة اللعينة .. وتملكها الخوف والرغبة ، الاضطراب والرعب ، فدفعت بالموسى تحت وسادتها ، وانتوت أن ام ولا تقدم على هذه المغامرة الخطرة ، التي لا تشعر نحوها بغير الوجل لتشاؤم ! .

بيد أنها قامت ثانية ، وقد وجدت من نفسها قوة وجرأة ، وتمسكتها جاعة دافعة ، وبخاصة عندما سمعت شخير زوجها يتصاعد فيملاً الجو ، طمأنّت ، واعتقدت أنه راح في نوم عميق ، يمكنها من قضاء مهمتها ن افتضاح أمرها .

وسارت على أطراف أصابعها رويداً رويداً ، وما كادت تصل إلى زوجها وتضع يدها على رأسه حتى هبَّ من نومه ممسكاً بيدها في عنف وشدة ، ولم يتمهل أو يتريث ، بل لوى يدها ، فرضخت في صوت مكتوم خشية الفضيحة ، ولكنه لم يمهلها ، بل سرعان ما أمسك رقبتها بيديه القويتين ، ولم يدعها حتى سقطت جثة هامدة ... !!

وشاع الخبر ، وأقبات قبيلاتها عن بكرة أبيها ، ولم يهدأ لها بال حتى أسقطته قتيلاً بجانب زوجته .
وامتشق كل فرد من أفراد القبيلتين حسامه ، واستمر بينهما القتال ، وصفق الشيطان من بعيد ...
وشاهد العبد اللعين كل ما حدث عن قرب وهو هادئ النفس ، مطمئن الخاطر ، مرتاح الضمير ، لأنه لم يعلم بالحقيقة إنسان ، ولكن لعنة الله كانت تلاحقه في مراحه ومغداه ... !!